

الفرج بعد الشدة

[245] يا هذا هو ذا أموت فاحتل ما تبتاع به عسلا ودقيقا وشيرجا وإلا مت. فبكيت وحرنت وخرجت على وجهي وجئت لاغرق في الدجلة، فذكرت حلاوة الروح والنفس وخوف العقاب في الآخرة، ثم خرجت على وجهي إلى النهروان، وما زلت أمشي من قرية إلى قرية حتى بلغت خراسان فصادفت من عرفني، فتصرفت في صناعتي ورزقني الله جلّت عظمته، فأثريت واتسعت حالي وكتبت ستة وستين كتابا لاعرف خبر منزلي فلم يعد إلى الجواب فلم أشك أن الجارية قد ماتت فقطعت المكاتب فتراخت السنون حتى حصل معي ما قيمته عشرون ألف دينار. فقلت: قد صارت لي نعمة فلو رجعت إلى وطني، فابتعت بالمال كله متاعا من خراسان وأقبلت أريد العراق من طريق فارس والاهواز فلما حصلت بينهما خرج على القافلة اللصوص فأخذوا جميع ما فيها ونجوت بثيابي وعدت فقيرا كما خرجت من بغداد. فدخلت الاهواز وبقيت فيها متحيرا حتى كشفت خبري لبعض أهلها ممن لا أعرفه فأعطاني ما تحملت به إلى واسط، ونفدت نفقتي فمشيت إلى هذا الموضع وقد كدت أتلّف فاستغثت بك، ولى منذ فارقت بغداد ثمانية وعشرون سنة. فعجبت من محنته ورفقت به وقلت له: إذا صرنا إلى بغداد وعرفت خبر أهلك فصر إلى فإنني آمر بتصريفك فيما يصلح لمثلك مما تعيش. فشكر ودعا لي، ودخلت بغداد ومضت على ذلك مدة نسيت فيها. فبينما أنا يوما قد ركبت أريد دار المأمون، فإذا بالشيخ على بابي راكبا بغلا فارها بمركب محلى ثقیل وغلّامين أسودين بين يديه كأنهما مماليكه، وثياب حسنة فلما رأيته رحبت به وقلت له ما الخبر؟ فقال: طويل. فقلت عد إلى فلما كان من الغد جاءني فقلت له. عرفني خبرك، فقد سررت بحسن ظاهر حالك، فقال: إني لما صعدت من زلالك قصدت داري فوجدت حائطها الذي يلي الطريق كما خلفت غير أن باب الدهليز مجلو نظيف وعليه دكتان وبغال مع شاكزية. فقلت: إنا ما نت جاريتي ويملك الدار بعض الجيران فباعها لرجل من أصحاب السلطان فقدمت على رجل بقال كنت أعرفه في المحلة فإذا في دكانه غلام حدث فقلت من تكون من فلان البقال؟ فقال: ابنه. فقلت: ومتى مات أبوك؟ قال منذ عشرين